

اجتهادات مال سهل .. وفراغ

تفرض موجة التضخم الغالبة فى العالم اليوم خفض معدلات الاستهلاك. وهذه حالة مؤقتة ستنتهى فور السيطرة على التضخم. وانخفاض الاستهلاك ليس أمراً سيئاً أو محزناً ما لم يمس الحاجات الأساسية للمرء، أو ينقله من فئة اجتماعية إلى أخرى أدنى. وارتفاعه ليس أمراً جيداً أو مبهجاً إلا فى أوساط من أثر انخفاضه على حاجاتهم الأساسية، وبمقدار ما تحتاجه الدورة الاقتصادية لى تعمل. ولكن المعايير السائدة بشأن انخفاض الاستهلاك وارتفاعه تختلف عن هذا المعنى. فقد أصبح الاستهلاك غاية فى ذاته لدى قطاعات يُعتدُّ بها من الطبقات المتوسطة والفئات الاجتماعية العليا. بدأت هذه الحالة فى الدول الصناعية الأكثر تقدماً، ثم انتشرت فى أنحاء العالم. واقتربت بدايتها بتوافر مال سهل لا يُبذل جهد يذكر فى الحصول عليه، ووقت فراغ لا يرتفع كثير ممن يملكون هذا المال إلى المستوى الذى يتيح ملؤه بما ينفع ويفيد. لم يعرف رؤاد الرأسمالية الأوائل فى أوروبا وأمريكا هذه الحالة، إذ كان الحصول على المال يتطلب عملاً مستمراً. وكان هذا المال يُستثمر لتحقيق التراكم الذى أدى إلى تطور اقتصادات هذه الدول. ومازال بعض كبار الرأسماليين يستخدمون أرباحهم فى الاستثمار أكثر من الاستهلاك. وبرغم اختلاف المؤرخين الاقتصاديين على تحديد البداية الأولى لأنماط الاستهلاك الفج والضرارى والتفاخرى، فالأرجح أنها بدأت فى أوساط أصحاب حقول النفط فى جنوب الولايات المتحدة فى وقتٍ ما خلال النصف الأول من القرن الماضى، أى بعد أن ولت مرحلة كان الحصول على نقاط النفط الأولى يتطلب عملاً شاقاً. فعندما تطورت صناعة النفط، وازدادت عائداتها، وضعت فى جيوب أصحابها وأيديهم ثروات ريعية ضخمة تتدفق طول

الوقت، وصارت لديهم أوقات فراغ طويلة لا تنتهى 0 وقد صوّر ج . ب بريسلى ما حدث فى تلك الفترة بطريقة أفضل من المؤرخين الاقتصاديين فى كتابه رحلة قوس قزح 1955، بالاشتراك مع زوجته جاكيتا هاويس، بعد رحلة طويلة إلى أمريكا أمضى معظمها فى تكساس ونيو مكسيكو. وهكذا بدأت ارهاصات مجتمعات الاستهلاك مقترنة بثروات ريعية ضخمة فى بعض هوامش المسار الأساسى لتطور الرأسمالية الصناعية.